رأي | بقلم الاباتي
إدمون رزق ر.م.م.

إرث البابا فرنسيس وآفاق إزدهار الكنيسة

"رحيل هادئ، مفاجئ، من دون ضجيج، يليق برجل لم يرد يوما ان تسلط الاضواء على مرضه، وكان يتعاطى مع الالم بكتمان ووقار. مات البابا فرنسيس في اليوم التالي للفصح، بعدما بارك المدينة والعالم، وبعدما عانق الشعب مجددا، ذلك الشعب الذي، منذ اللحظة الاولى لانتخابه في 13 آذار 2013، وعده بأن يسير معه...". هكذا وصلنا خبر رحيل الحبر الاعظم، يوم بدأنا نتبادل تحية "المسيح قام! حقا قام!" هذه ليست المرة الاولى التي يرحل فيها بابا متواضع جبار، فلكل حقبة من تاريخ الكنيسة، ارسل الله راعيا مميزا يقودها اليه. مَن لا يشتاق الى البابا يوحنا بولس الثاني حبيب شعب لبنان؟ والبارحة فقط ودعنا البابا بندكتس السادس عشر، اللاهوتي الكبير الذي اشاد بجمال الكنيسة وعمل بجهد لتثقيفها وتقدمها بالعودة الى الجذور. فهل يكون فراق البابا فرنسيس اخف وطأة على قلوب ابناء اعتادوا على حبه وتغذوا من وداعته وتعلموا من تجرده؟

منذ انتخابه، شكل البابا فرنسيس علامة فارقة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية. فها هو في اطلالته الاولى، من شرفة الفاتيكان، يطلب من حشود المؤمنين ان يباركوه، وهذا يشير الى اهمية دورهم في حياته: ان يقبلوه ويباركوه لينطلق في مسيرته الجديدة. وبالفعل حمل البابا للكنيسة حبا لا يتردد امام اي شيء، ورؤية اصلاحية جذرية، ارتكزت على التبشير بكلمات بسيطة والقرب من الفقراء، ورفع شأنهم والتشديد على الاهتمام بهم، وجعل قضيتهم قضية العصر... ليس هذا فقط، فقد حمل القضايا الانسانية كلها وجراحاتها وآلامها، ولم يغف له جفن ولم يتكاسل في اي عمل. اذن، ماذا يترك البابا فرنسيس من ارث للكنيسة، واي لقب يليق به اكثر: بابا العدالة الانسانية، ام بابا الفقراء؟ بابا الرحمة والتجرد؟ بابا البيئة والبيت المشترك؟. كل هذه الالقاب لا يمكنها ان تعطي سعيه الدؤوب حقه، لأنه في كلها أب وساهر، وكلها اولوية لديه.

اولا: كنيسة الرحمة والانفتاح

اولى البابا فرنسيس اهتماما خاصا لتجديد صورة الكنيسة، ساعيا الى تخليصها من البيروقراطية والانغلاق. بالنسبة اليه الكنيسة "ليست قلعة منغلقة"، بل هي "مستشفى ميداني بعد المعركة" (مقابلة 2013). وقد دعا الى ان تكون الكنيسة مكانا للرحمة ولمداواة الجراح، مفتوحة للجميع، خاصة للمجروحين والمهمشين والبعيدين من الايمان. وقد تجلت هذه الرؤية في سنة الرحمة (2015-2016)، حيث منح الحبر الاعظم غفران الخطايا بطريقة موسعة، مشددا على ان "الرحمة هي اسم الله"، وان الكنيسة التي لا تعكس رحمة الله تفقد هويتها الانجيلية.

ثانيا: الاصلاح الاداري والمالي

ككل مؤسسة بشرية تكثر فيها الموارد، لم تستطع الكنيسة تجنب السقطات. وهكذا ورث البابا فرنسيس ادارة كنسية معقدة تعاني من ترهل مؤسساتي وفضائح مالية. لهذا، اصر على القيام بإصلاحات داخل الكوريا الرومانية، منشئا مجلس الكرادلة لمساعدته في الحكم واعادة تنظيم الدوائر الفاتيكانية. كما اسس هيئة رقابة مالية (ASIF) لتعزيز الشفافية ومحاربة الفساد. هكذا، وبالرغم من المقاومة الداخلية، واصل البابا نهجه بثبات، مؤمنا بأن تطهير الهيكل من الفساد هو شرط اساسي لازدهار الكنيسة، روحيا وعمليا. فـ"الكنيسة لا تنمو بالسلطة، بل بالتواضع والصدقية"(2016).

ثالثا: الدفاع عن الفقراء والعدالة الاجتماعية والاهتمام بالبيئة

هو من ابرز معالم ارث البابا فرنسيس "التزامه قضايا الفقراء والمستضعفين". في الارشاد الرسولي Evangelii Gaudium (فرح الانجيل، 2013)، دعا الى "كنيسة فقيرة من اجل الفقراء"، مؤكدا ان "غير المتساوين" ليسوا فقط ضحايا النظام، بل ايضا محرومون من كرامتهم الانسانية. على مثال القديس فرنسيس الاسيزي، شفيع حبريته، تجرد البابا من كل انواع الكماليات،

وتمسك بحب الفقر والفقير والعمل من اجل كرامة عيش الفقراء. نادى بقرب الرعاة من خرافهم كي "يتوشحوا برائحتهم" فيرتاح الخراف ويشعروا بالامان معهم. اصغى الى آلام الخراف وكلم الناس ببساطة وتقرب منهم بالمحبة، وشاركهم قلقهم وهمومهم. فالراعي لا يكون بعيدا والكنيسة لا تكون خارج العالم. هكذا جعل الكنيسة اكثر حضورا في النقاشات الدولية حول التغيير المناخي، والعدالة الاقتصادية، وقد تجلى ذلك في الوثيقة البيئية 2015 (Laudato Si') حيث شدد على ان العناية بالبيت المشترك واجب على الجميع كما هو مسؤولية اخلاقية وروحية، وان العدالة البيئية لا تنفصل عن العدالة الاجتماعية.

رابعا: الحوار بين الاديان وبناء السلام

تماما مثل اسلافه، وبسعي الكنيسة الدائم، عمل البابا فرنسيس على مد الجسور، فالتقى العديد من القادة الدينيين، وابرز هذه اللقاءات توقيع "وثيقة الاخوة الانسانية" في ابوظبي عام 2019 مع شيخ الازهر احمد الطيب، التي دعت الى السلام، والحوار، ورفض التطرف. وهو قد زار العراق في آذار 2021، في خطوة تاريخية، رمزية في خط مبادئ السلام والتعايش بين المسيحيين والمسلمين بعد سنوات من الحرب والاضطهاد. اما كلمته في اور: "من هذا المكان، بيت ابراهيم، نؤكد ان الاخوة اقوى من القتل، وان الرجاء اقوى من الحرب".

خامسا: دور العلمانيين والمرأة في الكنيسة

دعا البابا في العديد من المناسبات الى تفعيل دور العلمانيين في الرعاية، والتعليم، والعمل الاجتماعي. وقد قام بخطوات تدريجية لتعزيز دور المرأة في الكنيسة، معينا نساء في مناصب فاتيكانية لأول مرة، ومشجعا على بحث اعمق حول خدمتها في المجتمع الكنسي. ولا يمكن للتساؤلات ان تشككنا في تقديره لوجود المرأة في الكنيسة وعملها وسهرها وعطاءاتها، لأنه حتى آخر نفس له اتكل على المرأة التي نما الرب يسوع في احشائها وحملته كلمة وكانت له بيت قربان: العذراء مريم ام! وهي مثال المرأة العاملة لبنيان الكنيسة ودعمها وارشادها.

ارث واعد بالنمو والتقدم في مشروع الخلاص

ان ارث البابا فرنسيس لا يختزل في قرارات ادارية او وثائق تعليمية، بل في الروح التي بعثها في الكنيسة: روح عيش الانجيل ببساطة، وخدمة المهمشين، والشجاعة في الاصلاح، والانفتاح على الاخر. هو ارث روحي ورعوي ولاهوتي لا يقتصر على الزمن الحالي، بل يمتد الى المستقبل، مؤسسا لمرحلة من الازدهار الكنسي المرتكز على الرحمة، والعدالة الاجتماعية، والحوار. هذا الارث يعد مصدرا مهما لنمو الكنيسة ولازدهارها، لأنه يعيدها الى جذورها الحية ويجعلها اكثر قدرة على مخاطبة العالم المعاصر. "ان الكنيسة هي امنا عندما تنجبنا الى الحياة بالروح، لكنها ايضا معلمتنا عندما ترشدنا الى الحق". هكذا اعاد البابا فرنسيس التوازن الحيوي بين الامومة والتعليم، بين الرحمة والحق، وجعل من الكنيسة رفيقة درب لا قاضيا متعاليا.

خاتمة

في خضم التحديات العالمية - من الازمات الاقتصادية الى الحروب، الى ازمة الايمان - يقدم ارث البابا فرنسيس نموذجا نبويا لكنيسة رسولية شفافة، متجذرة في الانسانية والمحبة والعدالة. هو ارث يتخطى افاق الكنيسة الى ارجاء الكون ليكون مفتاحا حقيقيا لازدهار الكنيسة في القرن الحادي والعشرين. فكما يقول البابا الحبيب: "حين تفتح الكنيسة قلبها لكل انسان، تصبح حقا علامة حية لرحمة الله، وتزهر بالرجاء في عالم متعطش للسلام." وصلاتنا اليوم: "يا رب، علمنا ان نسير على خطى من دعوتهم ليقودوا قطيعك كخدام للرحمة والحق، وامنح كنيستك ان تواصل رسالتها في العالم بمحبة، وشجاعة، وانفتاح. اجعل من ارث البابا فرنسيس بذرة تنمو في كل قلب مؤمن، وتثمر سلاما وعدالة في كل ارض. آمين."